3

كونك مسلمة حديثاً ـ الأفراح والمسرّات

كانت رحلتي إلى الإسلام حسّية ـ رحلة مناظر، وأصوات، وأذواق ومواد ملموسة. وقعت في حب فكرة كوني مسلمة، الصلاة مع أول ضوء، تذوق أول كسرة طعام مع غياب أشعة الشمس، سماع الأصوات الشجية التي تدعو للصلاة والسجود على أرض دافئة. بخلاف معظم النساء الأخريات اللواتي ستعرفونهن في هذا الكتاب، لم أدرس الإسلام بعمق قبل أن أقرر أن أصبح مسلمة، لهذا، بالنسبة لي، معظم ما أعرفه الآن عن الإسلام كنت قد تعلمته بعد أن أصبحت مسلمة في الواقع، وأصبحت رحلة اكتشاف حقيقية.

المعتقدات القوية التي توحد كل المسلمين ـ ذكور، إناث، سود، بيض، أغنياء وفقراء ـ هي ما جمعت تلك الأخوات من كل دروبهن المختلفة معاً. كان بعض منهن يبحث، فيما لم تكن أخريات يفعلن ذلك، لكن في النهاية كانت هناك حقيقة لا يمكن التغاضي عنها، حقيقة لا يمكن نكرانها، والتي جعلت الخضوع لله أقوى مما يستطيع المرء مقاومته.

إنه هذا الإيمان في العقيدة الإسلامية الذي ينبغي فهمه، وآمل أن تكون هذه الفقرات القليلة مدخلاً لذلك.

الإسلام ـ الأركان

يؤمن المسلمون ويعبدون الله، الرب الواحد، رب موسى، وإبراهيم، والمسيح وكل الأنبياء الآخرين. الله هو اسم الرب في القرآن، الكتاب الذي أُنزل على النبي محمد ﷺ قبل 1400 سنة مضت، والذي تؤمر به البشرية بعبادة الله وحده. هذا هو حجر الأساس في الإيمان الإسلامي: التوحيد ـ الوحدانية الخالصة الصرفة.

يتمحور أسلوب الحياة الإسلامي حول عبادة الخالق وحده، دون أي شركاء. ليس هناك وسطاء: لا رجال دين أقوياء للغاية، لا كهنة اعتراف، لا قدّيسين يدعوهم المرء، لا أنبياء يتم تقديم القرابين لهم، لا آلهة ينبغي استرضاؤها ولا أسلاف ينبغي استشارتهم. في الإسلام، العبادة مقدّسة، وينبغي أن تكون كل أشكال العبادة خالصة لـ«رب العالمين»: الله، الواحد الأحد، العبادة ليست محصورة بشعائر الصلاة، الصيام، توزيع الصدقات وتلاوة القرآن. إنها تمتد عبر طيف الحياة؛ لتتضمن كل أشكال الأعمال اليومية، مثل تناول الطعام، الشراب والنوم، إلى الأحوال الشخصية مثل الزواج، الترفيه عن النفس والاستمتاع بالعلاقات الجنسية، إلى أحوال القلب مثل الحب غير المشروط، التفاني الصادق، الخوف والتوكل.

عمق وشمولية التوحيد الإسلامي عصفا بذهني. لم أستطع التفكير بنظام معتقدات آخر يأمر بالعبادة بشكل فريد وحصري للرب وحده. بالنسبة لي، كان ذلك يبدو مناسباً؛ لأنني إذا أردت النجاح في امتحاناتي، إيجاد عمل جديد، الزواج من رجل صالح، فإنني أسأل ذلك من المرجع الأخير ـ الرب ـ بدلاً من إضاعة الوقت في استشارة صغائر الأكوان.

في عـالم يتمحـور حـول المادة والفنـاء، يدعـو الإسـلام إلى حياة يتم تكريسها للرب والخلود. في القرآن، يوضح الله سبب خلقنا:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

منحني ذلك الجواب لأشد الأسئلة إرباكاً: ما هدف الحياة؟ إنها تعني، كمـا افترضـت، أنه يوجـد في الحياة ما هـو أكثر من مجرد السـعي وراء مسـتوى أعلى من الراحة المادية والتقدم إلى الأمام ضـمن بيئة تنافسـية للغايـة. ذلك يعنـي أنني لن أنتظـر إلى الأبد القبول من والـديّ، نظرائي ومجتمعي. ذلك يعني أن لكل يوم معناه، وأن كل يوم يشـكل فرصـة لوضع شـيء في ميزان حسـابي مع المولى عزّ وجل. كل ابتسـامة، كل عمل خير، كل وظيفة نؤديها بإخلاص تُحسـب الآن في ميزان شيء له قيمته الفعلية ـ عبادة خالقي ـ وكان هذا هو السبب في خلقي.

ولد محمد بن عبد الله ﷺ في شـبه الجزيرة العربية نحو سـنة 570 ميلاديـة وعاش في مدينة مكـة، وهي بلدة مزدهرة علـى طريق التجارة القـديم وموطن الكعبة، البناء الذي شـيّده إبراهيم لعبادة الرب الواحد الأحـد. كانـت الكعبة قـد تحولت حينهـا إلى موطن العديد مـن الأوثان التـي كان العـرب يعبدونها في ذلك الوقـت. تم اختيار محمد ﷺ، الذي كان معروفاً باسـم «الصـادق الأمين» لأمانته وصـدقه، ليكون نبياً يدعو قومه وكل البشـرية للعودة إلى عبادة الرب الواحد الأحد، وبدأ دعوته في مكة. برغم أن معظم أفراد عائلة محمد وقلّة آخرين اعتنقوا هذا الدين الجديـد، إلا أن أغلبيـة المكيين، وخاصـةً النخبة الحاكمـة، لم يرق لهم انتقاد النبي ﷺ لمعتقدات الشرك التي كان عليها أسلافهم. في النهاية،

هاجر المسلمون من مكة، أولاً إلى الحبشة حيث سعوا إلى الحصول على حماية ملكها النصراني النجاشي، ثم إلى بلدة تدعى يثرب. وهناك ظهر الإسلام بوصفه أسلوب حياة كاملاً، وعكست العبادة، القضاء والعلاقات الاجتماعية ما أنزله الله في القرآن.

كان لفيلم الرسالة أيضاً تأثير كبير علي. برغم أنه لم يقدم صورة دقيقة للغاية، إلا أنه استطاع أن ينقل شخصية النبي محمد ﷺ وأفعاله دون أن يُظهره. قرّبني الفيلم إلى الشخصيات التي نقلت الروايات والقصص التي جرت في حياة النبي ﷺ، الحديث ــ أصبحوا جميعاً أشخاصاً حقيقيين بالنسبة لي، وعندما عانوا، بكيت من أجلهم. استلهمت القوة مع أصدقائي من ثبات هؤلاء المسلمين الأوائل، الذين تعرضوا للاضطهاد نتيجة رفضهم لأوثان أسلافهم، جعلنا ذلك أقوياء في وجه المشكلات التي كنا نتعامل معها بسبب إيماننا الجديد.

كانت أركان الإسلام الخمسة إحدى أولى الأشياء التي تعلمتها، وهي ما يتلقاه معظم طلاب المدارس لدى دراستهم للدين. إنها الشهادة (شهادة الإيمان)، الصلاة، الزكاة، الصوم (في شهر رمضان) والحج (إلى مكة).

يستند إيمان المسلم أيضاً على أركان ستة، حتى أكون دقيقة. أركان الإيمان الستة هي الإيمان بالله، وملائكته، ورسله (كل الرسل الذين ورد ذكرهم في التوراة، والإنجيل، والزبور والقرآن)، وكتبه (الكتب التي سبق ذكرها بأشكالها الأصلية)، واليوم الآخر (يوم البعث) والقدر، خيره وشره.

بعد أن ذهبت أنا وصديقاتي إلى المحاضرات الإسلامية وحلقات الدرس، واستمعنا إلى الأشرطة، وقرأنا كتبنا وناقشنا قضايا فيما بيننا، فهمنا مقداراً كبيراً من الدين الذي اعتنقناه. برغم أن المعتقدات نفسها بسيطة، وجدنا أن تفاصيل الإسلام كانت حقاً مثل محيط معرفة شاسع. وقد غصنا فيها مباشرة.

«كانت إحدى أفضل الأشياء في تلك الأيام الأولى هي التقيد بالأمور التي نقرؤها، ونحن مدركون أنها كلها تبدو منطقية. لسنوات طويلة، كانت عائلتي النصرانية تعلّمني حول هذا الأمر وذاك، لكن ذلك لم يكن يبدو منطقياً على الإطلاق. لكن الإسلام بدا أخيراً منطقياً بالنسبة لي. لم يكن مجرد دين، وإنما طريقة حياة». عالية

مسلم حديثاً

هناك مناحٍ عديدة في تجربة المسلم حديثاً التي نتذكرها بشغف: اكتشاف الشهادة (شهادة الإيمان)، دراسة التوحيد وتقديره، الاستمتاع بالصلاة، تجربة الصيام، الراحة المستمدة من نمط اللباس الجديد ـ الحجاب ـ الإحساس الجديد بالمجتمع، والاتجاه المثير للاهتمام الذي تسلكه حياتنا. كان الاكتشاف اليومي للإسلام مثيراً. في عاداتنا وتقاليدنا، الأمر كما لو أننا نقول: «مهلاً، نحن مسلمات ولدينا هذا الدين العظيم ـ الإيمان ـ ونحن على قمة العالم!». دون شك، كانت تلك أوقاتاً سعيدة، أوقاتاً فرحة، أوقاتاً مليئة بالمسرّات.

الشهادة

أحـد أهـم العناصـر في إيمانـنـا الإسـلامي الجديد كان، ومـا يزال، الشـهادة، وهي تلك الكلمات التي ينطق بها المسـلمون منذ أكثر من 1400 سنة وهي التي تؤكد التزامهم بالإسلام.

الشهادة، المعروفة أيضاً بالكلمة، هي الركن الأول في الإسلام، وتقول:

«أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله».

تتألـف هذه العبـارة من جزأين، نفي وتأكيد. مع عبـارة «لا إله»، ينفي المسـلمون عبادة أي إله أو شـيء آخر، سـواء كان حجراً، شجرة، تمثالاً أو قدّيسـاً. تؤكد كلمتا «إلا الله» عبادة الله وحده، وأنه الواحد الذي يخصـه البشر بتلك العبادة.

> «لأنني ولدت مسـلمة، لم أكن أعتقد أني بحاجة للنطق بالشـهادة. بطريقـة مـا، أتمنى لـو أنني حققت ذلـك الركن الأساسـي، فقط للتفريـق بين وقت الجهـل ووقت المعرفـة. لكن لأننـي لم أنطق بها رسـمياً، فقد قضيت وقتاً طويلاً أمعن التفكير بها؛ لأن التقدم دون ذلك الركن صعب جداً». سارة

للشهادة شـروط خاصة بها، شروط تجعلها شرعية. أول تلك الشروط هـو العلم. الثاني هـو الإخلاص، الثالث هو الصـدق، الرابـع هو اليقين، الخامس هو المحبة، السادس هو الانقياد، والسابع هو القبول.

لا تسـتطيع الكلمات أن تعبر حقاً عن المشـاعر والأحاسيس التي ترافق الشهادة. عند النطق بها، تصبحين جزءاً من الأمة، أمة النبي محمد ﷺ،

وتكونين قد دخلت ثنايا الإسلام. تصبحين آنذاك جزءاً من مجتمع، ليس لأن ولادتكِ حدثت بالمصادفة ضمن حدود قومية مصطنعة، وإنما لأنكِ تؤمنين بالمعتقدات نفسها.

بالنسبة للكثيرات، يرافق النطق بالشهادة موجة من المشاعر: إثارة، وارتياح، وتحسب وفرحة.

«عندما تنطقين بالشهادة، يقال لك: إنك مثل رضيع مولود حديثاً، وأن لا ذنوب عليكِ. تشعرين بأنك شخص مختلف. تفكّرين حتى بأنكِ تبدين مثل شخص مختلف». أم صفوان

على الرغم من أن النطق بالشهادة كانت خطوة عاطفية لبعض الأخوات، إلا أن العديد منهن لم يدركن أيضاً أهمية تلك العبارة حتى تعمّقن في الدين وزدن من فهمهن له. لا أعتقد أنني أدركت أهميتها حتى نهاية سنتي الأولى مسلمة، وهكذا أنا واثقة أنني لم أكن استوفي الشروط السبعة عندما نطقت بها في الواقع. لكن، عبر القراءة وطرح الأسئلة، بدأت أدرك أهمية تلك الكلمات وكيف ستؤثر على كل مناحي حياتي. كان ذلك يبدو دائماً أكثر وضوحاً بالنسبة لي عندما ينشأ نزاع بين ما يتوقعه نظرائي مني وما أعرف أن الله يتوقعه مني. كنت أفكّر، كيف أستطيع تلبية ما يطلبون مني القيام به بينما أعرف، أنا أعرف، أنني موجودة لعبادة الله وحده؟ هل موافقتهم أكثر أهمية بالنسبة لي من رضا الله؟ ولأنني كنت بدأت أقدّر الشهادة، عرفت ماهية الجواب على ذلك السؤال.

الجزء الثاني من الشهادة أو الكلمة هو «محمد رسول الله»، وتعني أن المسلم يؤمن بأن محمد بن عبد الله ﷺ نبي الله ورسوله، ويتبع سنته

ويطيع أوامره. يفترض بالمسلم أن يحب الرسول محمداً ﷺ أكثر من أي إنسان آخر. كان هذا شيء وجدت صعوبة في استيعابه حتى بدأت في الواقع أتعرف عليه، على شخصيته وكيف كان يعامل الآخرين. أعتقد أن الأوقات التي شعرت بها أن قلبي يتعلق به حقاً كانت عندما سمعت بشأن حياته الخاصة: محمد، رجل العائلة. قبل أن أتزوج سنة 1999. استمعت إلى شريط حول كيف كان يعامل أفراد أسرته وبكيت: العطف، حس الدعابة، التواضع، الرحمة، المودة واللطف الكبيرين جعلتني أتمنى لو أني أستطيع الزواج من شخص فيه جزء من شخصيته. ينبغي أن أعترف أن جزءاً مما أعجبني كان مدى اختلافه عن الصورة النمطية العامة للمسلم التقليدي كانا على طرفي نقيض بطرق متعددة، وكان ذلك مبعث راحة لي. كنت أعرف أنني سأكون فخورة يوماً ما بأن أعلّم ابني طريقة تعامل النبي ﷺ في المنزل بحيث يمكن لابني أن يصبح رجلاً مسلماً حقاً.

اكتشاف القرآن

مذكور في صحيح البخاري، أوثق كتاب إسلامي بعد القرآن، أن النبي محمداً ﷺ بدأ في سنته الأربعين تلقي الوحي الإلهي على شكل رؤى كانت تتحقق. في ذلك الوقت أيضاً، بدأ يحب العزلة وكان يذهب غالباً إلى غار حراء؛ ليعبد الله عدّة أيام في كل مرة.

يوماً ما، بينما كان في الغار وحيداً، جاءه الملاك جبريل، وهو الملاك نفسه الذي كان الرب قد أرسله إلى موسى ومريم.

قال: «اقرأ».

كان محمد ﷺ قد نشأ معظم حياته بين البدو في الصحراء، ولم يكن يتقن القراءة أو الكتابة.

قال للملاك: «ما أنا بقارئ». عند ذلك، رفعه الملاك وضغط عليه بقوة كبيرة حتى لم يعد يتحمل ذلك. عندما حرّره، طلب منه الملاك مجدداً أن يقرأ.

أجاب مجدداً: «ما أنا بقارئ». عند ذلك، رفعه الملاك وضغط عليه مجدداً حتى لم يعد يتحمل.

بعد أن حرّره، طلب منه الملاك أن يقرأ للمرة الثالثة، مما دفع محمداً ﷺ لأن يقول: «ماذا أقرأ؟».

للمرة الأخيرة، ضغط عليه الملاك جبريل بقوة ثم قرأ الكلمات الآتية:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ [العلق: 1 - 3].

وعند ذلك، غادر الملاك تاركاً محمداً ﷺ مع أول آيات القرآن. كانت الدعوة إلى الإسلام قد بدأت.

عندما قرأت القرآن أول مرة، قبل أن أصبح مسلمة في الواقع، لم أفهمه تماماً. ونظراً إلى أنني لم أكن نصرانية من قبل، لم أفهم كيف يختلف عن الإنجيل، ولهذا كان موقفي متعجرفاً تجاه الأحكام والوصايا التي يتضمنها. لم آخذ بعضها على محمل الجد؛ لأنني اعتقدت أنها، مثل الإنجيل، من تأليف إنسان وأنه ربما تم تغييرها؛ لتلائم رجالاً أو أشخاصاً في السلطة.

بدأ إسلامي يصبح أقوى فقط عندما علمت عن المصدر الإلهي للقرآن. حتى ذلك الوقت، كنت آخذ ما يحلو لي وأترك ما عداه، مرتاحة لاعتقادي بأن رأيي هو الأهم. وكما قد يخبركم أي شخص يمتلك معرفة ما بالإسلام، تلك ليست هي الطريقة التي تتم بها الأمور!

لكن حالما بدأت أتعلّم عن القرآن، زاد إعجابي به وشعرت بالحاجة للتنقيب أكثر فيه والاقتراب منه. أصابت الكلمات التي أوحى بها الله إلى محمد ﷺ، عبر الملاك جبريل، العرب الكفّار بالدهشة. كان قوم محمد ﷺ معروفين بحبهم للغة والشعر وكان القرآن بالنسبة لهم مثالاً رائعاً عن ذلك، لكن النبي ﷺ كان قد وُلد وفُطم بين قبائل الصحراء ولم يكن يحسن القراءة أو الكتابة. كيف استطاع هذا الأمّي تأليف ذلك النثر المقفّى. لم يكن قد درس أبداً على أيدي الحاخامات والرهبان الموجودين تلك الأيام، لهذا كيف استطاع معرفة قصص اليهود والنصارى؟ لم يكن رجل علم، لهذا كيف استطاع معرفة أسرار علم الأجنّة، تفاصيل الجغرافيا وأسرار الفضاء؟ لم يكن لديه كرة سحرية، كيف استطاع امتلاك المعرفة بأحداث الماضي والقدرة على التنبؤ بأحداث المستقبل؟ هل كان مجنوناً حقاً كما نعته رجال قبيلته في ذلك الوقت؟ لكن الله نفسه قدم دليلاً واضحاً أن القرآن من عنده وحده عندما تحدّى البشرية كلها بأن تأتي بشيء يشبهه. كان التحدي الأول الإتيان بنص يشبه القرآن، ثم الإتيان بعشر سور مثله، وأخيراً الإتيان بآية واحدة مثل القرآن. لم يستطع أحد أبداً التصدّي لذلك التحدي.

انتقل النص القرآني نفسه عبر الأجيال فيما يعرف بالشكل المتواتر. هذا يعني نقله من مجموعة كبيرة من الناس إلى مجموعة كبيرة من الناس

بحيث يتعذر عليهم التآمر جميعاً لتحريف النص أو تغييره. يقترن هذا مع حقيقة أن الله نفسه وعد بحماية كلمته من التحريف والتزوير.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: 44 - 46].

نقل الملاك جبريل الوحي إلى النبي ﷺ خلال حياته عبر مدة امتدت إلى ثلاث وعشرين سنة. كان النبي محمد ﷺ يقرأ عندها الآيات التي تُوحى إليه ويعلّمها لأصحابه، الذين كانوا يحفظونها، يعلّمونها لغيرهم ويكتبون ما تعلموه. كانت تتم كتابة تلك الآيات الأولى بالعربية على قطع من القماش، الأوراق وأي شيء آخر يمكن الحصول عليه بسهولة. في آخر حياته، كان النبي ﷺ يقضي شهر رمضان يقرأ القرآن كله مع الملاك جبريل. كان أحد أشدّ أصحابه إخلاصاً زيَدٌ بن ثابت معه في تلك المناسبات ويقرأ معه. وعندما أمر الخليفة عثمان بأن يتم جمع القرآن في كتاب واحد، في السنة 24-25 بعد الهجرة (إلى المدينة)، كان زيَدٌ بن ثابت من تحقق وتثبّت من النصوص وترتيب الآيات.

لتلك الأسباب، بقي القرآن كما أوحي به النسخة العتيقة الموجودة في أحد متاحف تركيا هي نفسها التي يمكن للمرء الحصول عليها من أي مكتبة اليوم.

كان ذلك مصدر فخر كبير لنا نحن المسلمات حديثاً: بقي القرآن على حاله دون تغيير أو تزييف، بعكس الكتب المقدسة التي نشأنا عليها، وعزّز ذلك من اليقين والثقة في إيماننا.

أثـار القـرآن اهتمـام الكثيرات منـا. عندما سـألت كلير حـول بهجة كونها مسـلمة حديثاً وعن الأشياء التي أحبتها لدى دخولها الدين، أجابت دون تردد: «القرآن. لقد كان أروع شـيء سـمعته على الإطلاق. كنت أقرأ باستمرار شكسبير، الأدب والشعر، لكن عندما قرأت القرآن، وجدته شيئاً مختلفاً تماماً».

حرّك القرآن مشاعر الملايين عبر رسالته التي يحملها، كلماته ومعانيها ولحنه الشـجي في أثناء تلاوته. تلاوة القرآن شـيء يمنحه المسلمون دائماً أولوية قصـوى منذ فجر الإسـلام وفي كل أصـقاع العالم، حتى عند عدم وجـود حـبر أو ورق، يتم الحفـاظ على آيات كتـاب الله في قلوب المؤمنين. ربما يكـون الكتاب الوحيد في العالم الذي يحفظه آلاف النـاس من البداية حتـى النهاية ... لكن بالنسـبة لي في ذلك الوقـت، كان حفظ حتى الآيات الاستهلالية القصيرة مصدر سعادة وبهجة.

تعلّمـت ثلاثة آيات سـماعياً عندما كنت في غينيـا، ولدى عودتي، كنت متلهفـة لتعلم المزيد. مثل كل المسـلمين حديثاً، بـدأت من آخر القرآن، مع السور القصيرة في جزء عمّ، وهو الجزء الثلاثون من القرآن. أتذكر أنني كنت أسـتقل القطار إلى العمل، أقرأ الكلمات العربية بصـوتٍ مسموع من كتابـي الأخضـر الصـغير، وأردد الكلمات مـراراً وتكراراً؛ حتى أسـتطيع تلاوتها في صلواتي. وهكذا فيما كان آخرون يستمعون إلى أجهزة تسجيلهم أو يقـرؤون أكـثر الروايات رواجاً، كنت أتلو الآيات لنفسـي، ويجد صـوتي الغنائي السلوان في تدفق أمواج كلام الله.

يوماً ما، كنت في إحدى أكبر المكتبات الإسلامية في شرقي لندن أبحث عن كتب، أشـرطة وأشياء إسـلامية أخرى. ببطء، فيما كنت أشق طريقي

بين سجاجيد الصلاة، أعواد تنظيف الأسنان (المسواك) وزيوت البخور، انتبهت إلى شريط كان يمكن سماعه في الخلفية. كان شريطاً بعنوان حياة النبي. توقفت للإصغاء إليه فيما كان يسرد خطبة وداع النبي ﷺ عن صون حقوق المرأة، المساواة بين الأعراق المختلفة والالتزام الراسخ بطاعة الله، وبقيت كلماته تؤثر بي حتى يومنا هذا. ذرفت الدموع من عينيّ وسالت على وجنتيّ فيما كنت أسرع إلى خارج المكان؛ لأجلب النقود وأشتري الشريط. كان الأمر كما لو أنني أدركت، خلال لحظة، جمال الإيمان الذي كنت آنذاك جزءاً منه. فكّرت أنه إذا استطعنا، فقط استطعنا، تحويل تلك الكلمات إلى أفعال، كم سيكون ذلك جميلًا! كانت حلاوة ذلك اليوم الممزوجة بالمرارة، عندما شعرت بالقوة الرائعة في الإسلام، ستلازمني لوقت طويل.

سُنّة النبي ﷺ

أقوال، أفعال وموافقة النبي ﷺ تشكّل ما يدعى سُنّة النبي. المسلمون مقيّدون بأحكامها، والحديث هو ما صدر عنه من أقوال وأفعال.

كانت معرفة علم الحديث شيئاً آخر زاد من حبي وتقديري للدين. في صيف إحدى السنوات، نظّم المسجد حلقة دراسية مدّتها سبعة أيام، درَّس فيها بعض من أفضل طلبة العالم في الدراسات الإسلامية. هناك، مرتاحون من الأطفال والهموم الأخرى، تلقينا دورة مكثّفة عن العلوم الإسلامية المتنوعة، وكانت إحداها علم الحديث. ولم يكن باستطاعتهم انتقاء كلمة أفضل!

عرفت أن الأحاديث قد رواها أصحاب النبي ﷺ وانتقلت من جيل إلى آخر شفاهاً. ترتبط تلك الروايات بسلاسل نقل، كل شخص فيها

مسمّى ومعروف. مثلاً، يقول ناقل الحديث: «سمعت من فلان، عن فلان، عن فلان، عن أبي بكر عن النبي ﷺ أنه قال: كذا وكذا». يتم تصنيف الحديث وفقاً لمستوى صحته: صحيح، حسن، ضعيف وموضوع. أذهلني نظام التحقّق هذا في البداية. لا يمكنني أن أشرح كم كنت مطمئنة وواثقة عندما فهمت التصنيفات المختلفة! كدت حينها أكتب قصيدة حول ذلك! عرفت أنه إذا كانت سلسلة النقل ـ الإسناد ـ تفتقر إلى شخص واحد فقط، فلم يُعد الحديث صحيحاً. كانت تلك هي الحالة في حال وجود شخصيات غير جديرة بالثقة في السلسلة، أو لم يكن هناك صلة مؤكدة بين الرواة فيما يخص الزمان والمكان، أو كانت الكلمات لا تتوافق مع ما هو معروف عن الدين أو طريقة النبي ﷺ في الكلام. بالفعل، كان أي شيء آخر قد يلقي بظلال الشك على صحة الحديث سيمنع تصنيفه ضمن خانة الصحيح ويدفع به إلى خانة الضعيف أو الموضوع، خاصةً إذا كان هناك أشخاص معروفون بكذبهم في السلسلة.

تأثرت للغاية بالطريقة العلمية التي درس وصنّف بها الطلبة في الماضي والحاضر الحديث. ربما يبدو ذلك غريباً لأي شخص لم يختبره بنفسه، لكن تلك كانت لمحة عن عمق الدراسات الإسلامية وقد تأثرنا كثيراً بما عرفناه. زادت هذه الطريقة المتكلّفة والإسلامية تماماً في البحث من ثقتنا وعزّزت الإيمان في داخلنا.

بالنسبة لي، لم يكن ذلك سوى دليل آخر على جمال الإسلام، فيما يخصني، كان الإسناد، سلسلة النقل المدوّنة بحرص، مؤسسة فريدة للأمة الإسلامية. كان ذلك يعني أيضاً أنه ينبغي أخذ الأحاديث الصحيحة، مثل تلك المذكورة في صحيح البخاري وصحيح مسلم، على محمل الجد، وغالباً ما كانت تشكل الأساس للعديد من نقاشاتنا في ذلك الوقت.

«لقد أحببت قراءة الحديث واكتشاف كل الأشياء التي لم أكن أعرفها عن الإسلام والصحابة. والنبي ﷺ أيضاً، كيف كان مع أصدقائه وعائلته، وكان الأمر لطيفاً ومؤثراً للغاية. هناك الكثير من التاريخ فيه» كلير.

أيام مليئة بالعبادة

إحدى العلامات المميزة الأخرى لتلك الأيام الباكرة كانت إقامة شعائر عبادة مختلفة. كانت إحداها الصلاة، الركن الثاني في الإسلام. المسلمون مطالبون في القرآن بإقامة الصلاة خمس مرات في اليوم:

﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: 103]».

بدأت الصلاة عندما كنت في غينيا، حيث كان اليوم نفسه يحسب بدعوات المؤذن، التي تنساب فوق أسطح المنازل والشوارع المزدحمة. في كوناكري، يوجد مسجد في كل زاوية تقريباً لهذا كان من السهولة بمكان التوقف عما يقوم به المرء أو إيقاف السيارة ووضع الوشاح والصلاة.

مرة، عندما كنت في ساحة التايمز، وسط الازدحام المحموم، شاهدت مسلماً يصلي، محاطاً بفوضى نيويورك. كان ذلك منظراً شديد الروعة، وأثر بي حقاً» سارة.

عودة إلى لندن، في الجامعة، كنا إما نذهب إلى مصلى الطلاب في اتحاد الطلبة أو نجد قاعة دراسية فارغة ونصلي هناك، ونسجد على معاطفنا. كان وقت صلاة الظهر ضيقاً، خاصةً خلال الشتاء عندما لم يكن يفصلها سوى ساعتين فقط عن العصر، كان لدينا غالباً محاضرات

أو دروس وقت الصلاة. تطلب مني الأمر بعض الوقت حتى تعودت على إقامة الصلوات الخمس كل يوم، لكني واظبت على الأمر ووصلت إلى مرحلة أخذت أصلي فيها بانتظام، وأقرأ بلهفة السوَر الجديدة التي كنت أتعلمها طيلة الوقت. قالت لي شريفة التي أسلمت حديثاً، وكانت ما تزال جديدة على الدين آنذاك: «أردت حقاً أن أتعلم كيفية الصلاة بالعربية ـ وأن أصلي كما ينبغي، وكيف أتوضأ ـ وما زال الأمر مثيراً بالنسبة لي. حتى عندما أصلي الآن، يتملكني إحساس لم أشعر به من قبل، وأشعر بالطمأنينة بعد الصلاة، كما لو أنني تخلصت من الكثير من الهموم».

بالنسبة لبعض الأخوات، كانت الصلاة أحد الأشياء الأولى التي ضربت جذورها عميقاً في قلوبهن، ومهدت الطريق لما تبقى من إسلامهن.

أخبرتني كلير، مثلاً، قصة قيامها بالصلاة والسبب وراء ذلك: «عندما تخرّجت شقيقتي، خرجت مع صديقاتي وتناولت حبة نشوة. بدأت أرتعش وأشعر بالحر حقاً. كنت مريضة، كما لو أن رأسي على وشك الانفجار، كما لو أن دماغي على وشك الخروج عبر جنبات رأسي. كنت أحاول المحافظة على هدوئي، وأقول: «أرجوك، دع هذا ينتهي، دع هذا ينتهي ... يا ألله، إن أنقذتني من هذا، فلن أفعله مجدداً». وهكذا عدت إلى المنزل بسيارة أجرة وبقيت مريضة طيلة الليل. ثم، عندما كانت الشمس تبزغ، نظرت في أرجاء الغرفة بحثاً عن شيء أغطي به رأسي، وصلّيت. وحافظت على الصلاة منذ ذلك اليوم.

تابعت تقول: «برغم أن التزامي بكل شيء آخر ربما كان بطيئاً، إلا أنني حالما بدأت الصلاة، لم أتوقف أبداً».

بالنسبة لسارة، كانت الصلاة شيئاً أستغرق وقتاً حتى ينمو داخلها: «لم أشعر بتآلف فوري مع الصلاة. أدّيتها بشكل اعتيادي؛ لأنني كنت أعرف أنه ينبغي عليّ ذلك. لكن، دون أن أدرك ذلك حتى، تطوّر حبي وحاجتي لها. أتذكر أنه خلال رحلاتي، كنت بعيدة تماماً عن المسلمين والطريقة الإسلامية في الحياة لكني كنت أبذل قصارى جهدي للمحافظة على الصلاة، للمحافظة على شيء من الدين. كانت مثل حبل السلامة، والصلة الوحيد لي مع الله».

نما حبي للإسلام خلال صيامي في أجواء غرب إفريقية الرطبة، محاطة بآخرين كانوا يصومون أيضاً. كان أول رمضان قضيته في لندن رائعاً، وإن كان مختلفاً جداً عنه في غينيا. لأكون صادقة، جعلني «متشوقة جداً» لتقاليد الصيام وطقوسه في كوناكري. على أي حال، للصيام في لندن سحره الخاص: ساندرا، حنّا وأنا، إضافة إلى صديقاتنا، كنا نصوم معاً. لم يكن ذلك يعني الكثير حقاً خلال النهار، عندما يكون لدينا محاضرات ودروس نحضرها، لكن بعد صلاة العصر، عندما يصبح وقتنا ملكاً لنا، نبدأ بعدّ الساعات والدقائق حتى يحين موعد الإفطار، وهي الوجبة التي يتم تناولها عند انتهاء الصيام مع غروب الشمس. في ذلك الوقت، كان الإفطار نحو الساعة الرابعة وكنا نشق طريقنا بلهفة نحو مصلى الطلاب، حيث يتم تقديم التمور والماء. آه، مذاق الحلو ذاك بعد جوع يوم بطوله: رائع. طعم الماء البارد بعد العطش: بديع.

كانت أوقات مثل تلك هي التي توحي لي بحكمة الصيام: كان التدريب الجسدي والروحي بالابتعاد عن الطعام والشراب، خاصةً عندما يكون كل شخص آخر في الحرم الجامعي يأكل شطائر البطاطا والتونا المعتادة من

حولـك، يمدك بالقوة. ذكّرني ذلك أيضـاً بوجود أشـخاص لا يتوافر لهم الطعـام كل يوم، وعلّمني بأن أكون ممتنة لحصـولي على الطعام، بعد أن اختبرت بنفسـي آلام الجوع المزعجة. إنها تجربة تدفع بالمرء إلى أقصـى حدود التواضع، وهي تشجع الصائم على التفكير بأولئك الأقل حظاً وشكر الله علـى نعمة الطعام. أعرف أنني شـعرت بذلك حينهـا، وقد أوحت لي الطمأنينـة التي نزلت علينا جميعاً عندما جهّزنا أنفسـنا لصـلاة المغرب بأن الآخرين كانوا يشعرون بذلك أيضاً.

«كنت أسـتطيع حقاً اسـتيعاب فكرة «الامتناع» بمجملها. اعتقدت أننا نحتاج لمعرفة شعور الامتناع عن الطعام والشراب لزمن محدد، بحيث نستطيع الإحساس بأولئك المحرومين وأن نقدّر ما لدينا أكثر» سارة.

بعـد ذلـك، كنا نصـلي المغرب، إحدى الصـلوات المفضـلة لـدي؛ لأن التـلاوة فيهـا تكون بصـوت مسـموع. كان هنـاك بعض الأخـوات اللواتي يقرأن القرآن بصـوت جميل حقاً وكنت أخشع في الصلاة وعيناي مبللتان بالدموع امتناناً؛ لأنني أنهيت يوماً آخر من الصـيام. وبعد الصـلاة، كان يحـين وقت تنـاول الطعام. كان الكثير من الطـلاب يجلبون معهم الطعام ليشـاركوه، مـع الآخرين، وكان الأمر يتحول أحيانـاً إلى وليمة حقيقية! في أيـام أخرى، كنا نسـير إلى «منطقة» محال الدجاج، وهي جزء من شـارع رئيس مكتظ بمحال الدجاج ورقائق البطاطا (المدهش أنها جميعها تحمل الاسم نفسه!)، ونشتري دجاجاً دسماً، لكن آه، لذيذ الطعم، والمشوي على طريقة أهل الجنوب؛ لنأكله في الحرم الجامعي.

أحياناً، كنا نلتقي جميعاً في غرفة سـاندرا، وكانت تقوم بتحضير وجبة شـهية لنا على الطريقة الكاريبية! لكننا أمضـينا بعضـاً من أفضل أوقات

الإفطار في المساجد حول العاصمة، حيث كانوا يقدمون مائدة للمصلين والزوّار. كانت إحدى مزايا زيارة مساجد مختلفة وقت الإفطار، والمعروفة أيضاً باسم «التنقل بين المساجد»، الالتقاء بعدد كبير من المسلمين من خلفيات مختلفة تماماً، باكستانيين، بنغاليين، مغاربة، جزائريين، صوماليين، نيجيريين، كاريبيين، إنكليز وأيرلنديين اعتنقوا الإسلام. لم أتعب أبداً من سماع كيف اعتنقت أخوات مختلفات الإسلام، ومع كل حكاية، كان إيماني يتضاعف عشرات المرات. رمضان وقت خاص لكل المسلمين الذين يستفيدون منه للخشوع فيه، لكن أول رمضان يقضيه المرء لا مثيل له.

شاطرتني سارة بمشاعرها حول رمضان: «أحببت الصيام. كنت بحالة نفسية رائعة آنذاك! أحببت الاستيقاظ باكراً في الصباح فيما كان الظلام لا يزال مخيماً؛ والتعود على ذلك النظام في الاستيقاظ وتناول شيء ما فيما باقي العالم نائم، ومعرفة أنكِ جاهزة للقيام بشيء مميز حقاً في أثناء النهار وأن هناك مسلمين في كل أرجاء العالم يفعلون الشيء نفسه: تضامن صامت».

متعة أخرى كانت تعلّم العربية التي كانت بالنسبة للكثيرين أولى محاولاتهم الجدّية لتعلم لغة أجنبية. بوصفها اللغة التي نزل بها القرآن، واللغة التي انتقلت بها الدراسات الإسلامية تقليدياً، فإن العربية حجر الزاوية في الإرث الإسلامي. يتلهف الكثير من معتنقي الإسلام والعائدين إليه لتعلمها؛ حتى يستطيعوا التفاعل مع النصوص الإسلامية بأنفسهم، دون الحاجة لترجمات غير دقيقة تحاول، دون جدوى، نقل جوهر الأصل.

شارة الانتماء

يستحق الحجاب ذكراً خاصاً بسبب مركزيته في كيفية رؤيتنا لأنفسنا نحن المسلمات حديثاً. ولأن ستر النفس واجب ديني وعبادة، تكلمت مع عدد لا يحصى من الأخوات اللواتي يقسن قوة دينهن، ومستوى إيمانهن وتكيّفهن الروحي بحجابهن.

> «كنت أعتقد دائماً أن النساء اللواتي يرتدين الحجاب جميلات، وكنت أحترمهن حقاً. لم أطق صبراً لأكون مثلهن» ناديا.

بعد العودة من لندن والنطق بالشهادة، كنت محظوظة؛ لأنني وجدت وظيفة عاملة استقبال وإدارة في مركز اجتماعي في فوريست غيت، في الطرف الشرقي من لندن. كان ذلك العمل مناسباً لي؛ لأنه كان مسائياً بعد محاضراتي الجامعية ويسمح لي بالتعرف على الكثير من الناس، وهو شيء استمتعت به حقاً. أيضاً، بسبب المنطقة متعددة الثقافات التي كنا فيها والموقف المنفتح الذهن للإدارة، لم أواجه مشكلات بما يخص الصلاة في العمل أو ارتداء غطاء الرأس. كان الدخل المنتظم شيئاً ملائماً أيضاً، بالطبع. أحببت أيضاً تنوع السكان في المنطقة ـ تتمتع دائرة نيوهام الانتخابية في لندن عامة بتنوع سكاني كبير ـ إنكليز، آسيويون، أفارقة، كاريبيون ومهاجرون من كل طيف يختلطون في شوارعها الرئيسة ومناطق تسوقها، مما يشكل حالةً فريدة تماماً. تدرّجت من استعمال أغطية الرأس الملونة إلى أوشحة صغيرة، إلى قطع أطول من القماش، إلى العباءة الشبيهة بملابس التخرج، ثم إلى الحجاب (الثوب الخارجي الكبير المعروف أحياناً باسم البرقع) والنقاب (خمار الوجه)، وبرغم ذلك لم يكترث المسؤولون عني ودعموني في كل مرحلة.

كان الحجاب مثل شارة الانتماء، شيء جديد كنا نستكشفه، نجرّبه ونجعله خاصاً بنا. في ذلك الوقت، كنت مثل تاجر قماش حقيقي، أبحث أولاً عن أقمشة سميكة قوية تصلح لأن تكون غطاء رأس جيد، ثم عن أقمشة أخف وأرق تصلح لأن تكون أفضل حجاب. أصبحت المحال في شارع غرين (الأخضر) مقصدي المفضل للحصول على الأقمشة. كان هناك دائماً تنوع كبير وكانت الأسعار منافسة جداً. لم يكن أحد يستطيع النقاش مع سعر 1.50 جنيه للياردة.

بالنسبة للكثيرات منا، كان ارتداء الحجاب يجعلنا نشعر بأننا مختلفات تماماً عمّا كنا عليه. ترافق ذلك بازدياد في معنوياتي وقوة في هويتي بوصفي مسلمة.

«عندما خرجت من المنزل مرتدية الحجاب، شعرت بأنني جميلة في عيون الله. شعرت بالحماية والوقاية شعرت كأن شخصاً يحرسني» ناديا.

رفاق في الرحلة

«كلما تكون هناك [في المسجد]، يساعدك أحدهم في سورة، أو دعاءكان الجميع يساعدون بعضهم بعضاً بتعلّم دينهم. كان الجو مشجعاً ومفيداً للغاية؛ لأن الجميع كانوا في القارب نفسه» أم محمد.

بعد النطق بالشهادة، كنت محاطةً بمجموعة متماسكة من أشخاص آخرين اعتنقوا الإسلام (كانت صديقتي ساندرا واحدة منهم) و«عائدين»، كانت إحداهن صديقة ساندرا المصرية حنّا. وانطلقنا جميعنا في هذه

الرحلة الأكثر إمتاعاً معاً. أصبحنا مقرّبات كثيراً في ذلك الوقت، وعندما لم يكن لدينا محاضرات، كنا نقضي معظم الوقت معاً. في كل أمسية تقريباً دون استثناء، كنت أغادر شقتي في البناء الشاهق الذي أقطنه وأسير في الشارع الرئيس إلى غرفة ساندرا في السكن الجامعي. أتذكر المزاج الطيب الذي كنت أشعر به عندها! كنت أقرع الجرس، وكانت ساندرا، التي تعرف أنها أنا، تأتي إلى البوابة وتسمح لي بالدخول. مرتدية تنورتها الطويلة وقميصها الفضفاض وتضع غطاء رأس الذي تربطه بإحكام آنذاك حول رأسها، كانت تقف عند البوابة، بابتسامتها العريضة، وتصرخ: «السلام عليكم، أيتها الفتاة الصغيرة».

متخذة موقفاً مشابهاً، كنت أرد: «وعليكم السلام، أيتها الطفلة الحلوة».

كانت تسأل: «هل أنتِ بخير؟»، وكنت أجيب: «الحمد لله، أنا بخير».

كان يحين بعدها وقت دخول «المنطقة». كانت «المنطقة» المساحة الخاصة بنا التي تناولنا بها أشهى طعام (لم يكن علينا الكدح مثل الطلاب في أثناء وجودنا في «مطبخ ساندرا»، كما أطلقنا على غرفتها الجامعية)، ودخلنا في مناقشات حماسية وجدال حاد حول الإسلام وكل خصائصه، وبقينا مستيقظات حتى ساعات الصباح الأولى، نصلي صلاة الفجر قبل أن نستلقي على أسرّة مؤقتة ونحن نضع نصب أعيننا أن لدينا ما نقوم به بحلول الساعة العاشرة صباحاً.

حتى في أوقات العطلة، كنا برغم ذلك نبقى معاً، ننتقل غالباً عبر لندن لحضور خطب إسلامية، وفي رمضان كنا نحاول تأدية صلاة التراويح (الصلاة الطويلة التي تتم كل ليلة خلال ذلك الشهر) في مسجد مختلف

كل مســاء. عندما تقدمنا في الدين، شـجّعنا بعضـنا في محاولاتنا الأولى لارتداء الحجاب، وتبادلنا النصـح حول الأقمشة التي يمكن صناعة أخف وأفضل العباءات منها. تكلمنا حول كل شيء: ماضينا، عائلاتنا، الحجاب، القرآن، النبي محمد ﷺ وأي شـيء آخر خطـر ببالنا. كان ذلك القُرب، الناتج عن تجربة مشـتركة، قوياً. بـدا لي في ذلك الوقت أننا كنا نعيش في فقاعة حيث الدين مركز حياتنا، وكل شـيء يدور حول ذلك، وفقط أولئك الذين كانوا داخل الفقاعة يمكنهم فهم ذلك حقاً.

«تشـعرين بأنـكِ جزء من شـيء مـا، أنكِ جـزء من الأمـة [الأمة الإسلامية] الآن وأن لك مكانتك. تشتركين بشيء أكبر ـ عبادة الله ـ وأنكم جميعاً تفعلون ذلك معاً» صفوة.

بعض الأخوات، مثل كلير وعالية، اعتنقن الدين مع أزواجهن ومنح ذلك علاقاتهم عمقاً جديداً. سـألت عالية عن علاقتها مع أحمد عندما أصبح كلاهما مسـلماً. قالت لي: «كانـت علاقتنا في ذلك الوقـت جيدة. عندما أنظر إلى الخلف، أعتقد أن ذلك كان بالتأكيد أفضـل وقت في زواجي، كنا سعيدين جداً، وقانعين للغاية. قرّبنا ذلك بالتأكيد، اشتركنا بالكثير».

وصـفت كلير لي أسـلوب حياتها الإسـلامي الجديد مع غاريث: «أسهم امتلاكنا لشـقة معاً في تثبيت هويتنا الإسلامية، وعلاقتنا الإسلامية بحق. كانت مكاننا الخاص، ولم يكن هناك حرج حول ما ستعتقده صديقاتي اللواتي يهتممن بالمظاهر. كان لدينا رف من الكتب الإسـلامية، ومكان نصلي فيه دائماً ... تعلمنا الكثير معاً وكنا نبذل جهدنا حقاً لامتلاك المعرفة بأشـياء معينـة. كنا نجلس معاً كثيراً ونقرأ صـحيح البخـاري أو مجموعة الأربعين حديث، وكنا نقرأ القرآن كل يوم، كان ذلك لطيفاً حقاً».

وجدت بعضنا أنفسهن في مجتمعات متنوعة، تمتلئ العديد منها بأخوات اعتنقن الإسلام. على طول الطريق، التقينا بعض الأشخاص المميزين حقاً الذين استمر تأثيرهم علينا حتى بعد أن تابعنا رحلتنا.

أخبرتني جميلة عن نموذجيها القياديين الرائعين بوصفها مسلمة جديدة: «كان العيش في منزل آسيا وسراج بالتأكيد أفضل جزء [في حياتي بوصفي مسلمة حديثاً] كان المنزل مليئاً بالدين، صباحاً، ظهراً ومساءً. خلال النهار، كان المنزل يمتلئ بالأخوات والإخوة والقرآن، وكان هناك وفرة في الطعام، وتأخذ ما تريد منه، كان منزلاً مفتوحاً حقاً، كانت كل غاية منزلهما نشر الإسلام وتعليمه، ومعظم الناس الذين أعرفهم الآن منذ سنوات، التقيتهم هناك. كان هناك أشخاص يملكون دائماً وقتاً للجميع: كان وقتهم ملكاً لكل شخص آخر. لم أشاهد شخصين مثلهما أبداً. كانا مثل والدين لي، كما لو أنهما حلا محل عائلتي».

تتذكر أم محمد، أيضاً، سراج وآسيا، ووصفت لي التأثير الذي أحدثه موتهما، واحداً تلو الآخر بفاصل قصير من الزمن، على تلك الجماعة الصغيرة.

«عندما تُوفيت آسيا، كان ذلك صفعة للجماعة. أعتقد أن الجميع تأثر بذلك لتسعة شهور على الأقل. كانت واحدة من أولى حالات الوفاة في مجموعتنا وطالت شخصاً نعرفه، نحبه ونحترمه جميعنا. عندما توفي زوجها، بعد سنة أو نحو ذلك، كانت تلك صفعة أخرى. كانت تلك أول مرة نختبر فيها الموت من وجهة نظر إسلامية، وأن تلك كانت بداية الحياة الآخرة لهما.

غالباً ما كنت أسمع أخوات أخريات يتكلمن عن آسيا بوصفها شخصاً بالغ الأهمية في تعلّمهن وإحساسهن بالانتماء بوصفهن مسلمات حديثاً. كن يتحدثن عنها بشغف واحترام.

في عملي، كنت ألتقي دائماً بأشخاص من كل أنحاء العالم؛ لأنهم كانوا يأتون إلى الكلية للتسجيل في صفوف اللغة الإنكليزية. كنت أشعر بأنني محظوظة، لأنني ألتقي وأتبادل أطراف الحديث مع الكثير من الناس من خلفيات مختلفة، وكان لقاء عدد كبير من المسلمين موضع تقدير خاص بالنسبة لي. بعد أن نطقت بالشهادة آنذاك، شعرت بأنني على صلة مؤكدة مع الباكستانيين، والبنغال، والجزائريين، والصوماليين، والألبان والغرب الإفريقيين الذين كنت أراهم بانتظام، أتذكر أن وجهي كان يتألق فرحاً كلما سألني أحدهم إن كنت مسلمة؟ كان ينتابني شعور طيب عندما أرد بالإيجاب وكلي ثقة بالنفس. وينبغي علي القول: إن المسلمين، على العموم، كانوا ودودين معي وكنا نسعد دائماً بتبادل تحية السلام الإسلامية: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

لم نعد ننضم فقط إلى أفراد من عرقنا، عمرنا، طبقتنا الاجتماعية أو أندادنا الفكريين كانت المعتقدات التي نشترك فيها مع إخوتنا المسلمين تفوق كل تلك الحسابات أهمية وتحطم الكثير من الحواجز.

وصفت آسيا الأمر بالقول: «كان هناك ذلك الود الرائع من الجميع، لم أشعر بأن ذلك مزيف أو أي شيء من هذا القبيل. كنتن مسلمات فحسب، وتؤمنَّ بما يؤمن به الجميع. هل تعرفون فيلم مالكولم إكس عندما تحدث عن ذهابه إلى «العمرة مع كل الناس، بغض النظر عن ألوانهم»؟ كان ذلك

ما يبدو عليه الأمر بالنسـبة لي حينها. حالما يلتقون أحداً ما، كانوا يمدّون أياديهم ويعانقونه، ولم يكن ذلك شيئاً يحصل حقاً قبل الإسلام».

بالنسبة لي، كان الأمر رائعاً: كانت هناك الكثير من الأخوات، وكن شابات، وكن صـينيات، سوداوات، بيضـاوات، آسيويات، جميعهن معاً، وقد أسـعدني ذلك حقاً. كانت جميعهـن جديدات على الدين ومتحمسات جداً. أصابتني التجربة بأكملها بالذهول» رابية.

قبل الإسلام، لم يكن لدي وقت للأعراق الأخرى، ووجدت نفسي آنذاك أقترب أكثر من العرب، الآسيويين، البيض وكل أنواع الأعراق المختلطة، كما فعلت الكثيرات منا. تخليت عن الكثير من أفكاري المناصرة للسود، وأصبح كرهي الشديد للزواج المختلط الأعراق شيئاً من الماضي. كان العدد الكبير مـن حالات الـزواج بين أعراق مختلفـة تعرفت عليها تباعـاً، مذهلاً. كنا نتنافس أحياناً لتحديد حالة الزواج الأكثر اسـتبعاداً: هل سيكون نيجيرياً ومصـرية، أيرلندياً وعربية، جزائرياً وجامايكية، صومالياً وباكستانية أم صـينياً وغانية؟ لكن كان هناك دائمـاً أمثلة على الزواج مختلط الثقافات أكثر مما نستطيع تحديده.

كان الانتمـاء إلى مجتمع إسـلامي جزءاً ثميناً مـن تجربتنا الجديدة. أحياناً، كان ذلك المجتمع هو كل ما يملكه المرء؛ لأن العائلات والأصـدقاء لم يفهموا أو يقبلوا طريقة عيشنا الجديدة. خفّف من الوحدة والعزلة التي كنا نشعر بها دفء العائلة الجديدة التي وجدناها ـ العائلة الإسلامية.

حياة جديدة بالكامل

طيلة قرون، في كل مكان وزمان، كانت البشرية تطرح أسئلة حول معنى الحياة. وحتى عندما يحقق المرء كل أحلامه ويحصل على كل ما يتمناه في

مجتمعنا الذي يتميز بالإشباع الفوري لحاجات الفرد والبحبوحة المادية، هناك دائماً ذلك الشعور المزعج والسؤال المتكرر: هل هذا كل شيء؟ يبدو الأمر كما لو أن روح الإنسان عميقةٌ جداً، بحيث لا يستطيع مقدار كبير من الأوقات الجيدة والمتعة مَلْأَها بشكل كامل أبداً. لهذا، أحياناً، يصرخ الرجل ـ أو المرأة ـ الذي لديه «كل شيء» وحيداً في الليل يائساً أو ينشد الراحة على الوسادة، أو في قارورة من المسحوق الأبيض الناعم، أو أي شيء لإخماد ذلك التعطّش النهم لشيء ذي مغزى، شيء حقيقي.

«جعلتني عبادة الله أشعر بأنني وجدت ما كنت أبحث عنه. اكتشفت أن لدي وجهة أقصدها لم تكن موجودة من قبل. قبل أن أدخل الدين، لم يكن لي وجهة مهما كانت، وكنت أستيقظ في الصباح وأشعر بإحباط شديد لا يمكن تصديقه» عزيزة.

لكننا وجدنا شيئاً يجعل لكل لحظة استيقاظ معنى، شيئاً جعل حياتنا هادفة وذات مغزى. كان بعض منا سعداء؛ لأنهم تركوا الانقياد الأعمى لأهواء المجتمع.

بطريقة ما، اتخذنا موقفاً قوياً جداً ضد الثقافة السائدة. قلنا: «لا، لن أعيش حياتي وفقاً لشروطك وإملاءاتك. لن أخسر نفسي في مسرّاتك وتسليتك. لن أرتدي ملابسي وفقاً لأزيائك. أنا مسلمة وأعبد الله، وليس فوغ (مجلة أزياء) أو صنداي تايمز».

أخبرتني سارة: «عندما بدأت أستر نفسي بادئ ذي بدء، قالت لي إحدى صديقاتي في الجامعة: «لا يمكنني أن أقول لك كم أحترمك لما اخترت القيام به». أعتقد أنها رأتنا شابات، إناثاً، مؤهلات، وينتظرنا

الكثير أمامنا كان العالم محارتنا. وبطريقة ما، كنت أتحول كلياً وأقول: «ليس هذا ما أريده».

بالنسبة لي، حقيقة أنكِ لم تكوني تخضعين لمجتمع، حقيقة أنكِ لا تقومين بأشياء يقوم بها جميع ما عداك؛ لأنهم يقومون بها وحسب كان يمنحني شعوراً طيباً. خاصةً الاقتراب من السادسة عشرة: الذهاب إلى الجامعة وعدم القيام بما يفعله جميع ما عداك، عدم ارتداء الملابس التي يرتديها كل ما سواكِ، والقيام بما يمليه الدين، خالصاً لوجه الله، كان يمنحني شعوراً حقيقياً بالإثارة...» بيغوم.

بالنسبة للكثيرات منا، كانت الأيام، الأسابيع والشهور التي أعقبت النطق بالشهادة أفضل أوقاتنا. كان كل شيء جديداً ومثيراً. كان هناك الكثير لنتعلّمه، نستكشفه ونكتشفه. كانت بداية رحلة ملحمية نحو باقي حياتنا، ولم يكن يرافق تفاؤلنا، الذي يشبه تفاؤلنا أيام الشباب، إحباط، خيبة أمل أو يأس. بعد أن فتحنا الباب إلى منزل الكنز، كنا متلهفات لإسعاد أنفسنا بين عجائبه، وفعلنا ذلك، بعقولنا، وأجسادنا وأرواحنا.